ISSN :1112-4377 مجلة المعيار
مجلد: 26 عدد: 7 (رت 69 ) السنة: 2022

# خصوصيات العبد المسلم عند أبي العباس ابن العريف الصنهاجي الأندلسي (ت 536 هـ )

## من خلال كتابه مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة

# The characteristics of the Muslim servant according to Abu Al-Abbas Ibn Al-Arif Al-Sanhaji Al-Andalus (d.536 AH)

## through his book The Key to Happiness and Achieving the Path of Happiness

أ. سعدوني سهيلة[1]
مخبر الدراسات الشرعية قسم العلوم الإسلامية جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
Souheyla83@hotmail.fr

تاريخ الوصول 2020/11/17 القبول 2022/09/02 النشر على الخط 2022/11/05
Received 17/11/2020 Accepted 02/09/2022 Published online 05/11/2022

**ملخص:**

تناول هذا المقال خصائص العبد المسلم ومعالم سيره إلى الله عند الزاهد الربّاني أبو العباس ابن العريف الصنهاجيّ الأندلسيّ (ت 536 هـ) الذي عُرِف بورعه وصلاحه وارتبط اسمه بمدرسة ألميرية الصوفية الأندلسية، و والذي جمعته علاقة بالقادة الروحيين الذين قادوا بما يعرف بثورة المريدين في الأندلس، و قد اشتهر وسمه في عصرنا وذاع صيته لاسيّما بعد تحقيق كتابيه: محاسن المجالس و مفتاح السعادة.

كان لابدّ من الاعتماد على المنهج الاستقرائي التحليلي وتتبّع كلّ ما ورد عن ابن العريف من معاني الاستسلام لله تعالى ومقتضياته من أجل الوصول إلى النتيجة المرجوة من هذه الدراسة والتي تلّخصت في أنّ المسلم عند ابن العريف عندما يتميّز عن غيره بعبوديته لله تعالى يتمّ إنسانيته من حيث وجوده وكونه ابتداء ومصيرا.

**الكلمات المفتاحية:** العبد المسلم؛ ابن العريف، مفتاح السعادة، الأندلس

**Abstract:**

This article treats the meaning of being servant to God Almighty and its requisits according to the ascetic Ibn Al-Arif Al-Sanhaji Al-Andalusi (d.536 AH), who was one of the pioneer of the Andalusian Sufi school of Almeria, who had a relationship with the spiritual leaders who led what is known as the revolution of the sufi disciples in Andalusia. It was necessary to rely on the inductive analytical method and to follow all the meanings of servitude mentioned by Ibn Al-Arif in order to reach the desired result, which was summarized in that being a servant Muslim for Ibn Al-Arif is one of the origins of human being in terms of his existence, his beginning and his destiny, as well as it is one of the most special characteristics a Muslim servant could not be a worshiper without it.

**Keywords** : servitude ;Ibn Al-Arif.; the happiness key; Andalusia.

---

[1] المؤلّف المراسل: **سعدوني سهيلة** البريد الإلكتروني: **souheyla83@hotmail.fr**

## 1. مقدمة:

جاء دين الإسلام برسالة عظيمة تشمل جميع مناحي حياة الإنسان، وتصحّح ما قد يطرأ على تفكيره وعلى اعتقاداته عندما يتأمّل هذا الكون البديع ويتعقّل الموجودات؛ و العبودية لله عزّ وجلّ أساس هذه الرسالة وعليها يقوم الاستسلام للخالق وبها ينظر كل ناظر وبعلم حقيقتها يعمل كل عامل.

و قد ترك المتقدّمون من العلماء والأئمّة مدوّنات بسطوا فيها الكلام عن العبودية وحقائقها ومقتضياتها واستفاضوا في وصف العابدين بحقّ مما كان لأحوالهم من سمات الامتثال ولمقالاتهم من نعوت الذكر والحكمة، ومن بين هؤلاء العلماء الذين حققوا معاني العبودية بكلامهم فانعكست على أحوالهم نجد الزاهد الربّاني أبو العباس ابن العريف الصنهاجيّ الأندلسيّ ( ت 536 هـ) والذي عُرِف بورعه وصلاحه وارتبط اسمه بمدرسة ألمرية الصوفية في الأندلس، واشتهر وسمه في عصرنا وذاع صيته لاسيّما بعد تحقيق كتابيه: محاسن المجالس و مفتاح السعادة، وعلاقته بالقادة الروحيين الذين قادوا بما يعرف بثورة المريدين في الأندلس.

ودراسة ابن العريف ليست بالأمر السهل إطلاقا، لأنّه كان من متصوّفة الأندلس يتمتّع بأسلوب القوم وينتهج مسلكهم، بل كان من الأقطاب الذين يسعى إليهم المريدون وقتئذ، لذلك يأتي هذا البحث الوجيز ليجيب عن إشكالية محدّدة تُطرح ضرورة بعد قراءة متأنية لما جاء في كتابه مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة صيغتها: ما حقيقة العبد المسلم ومقتضياتها عند ابن العريف الصنهاجيّ؟

وللإجابة عن هذا السؤال المحوري، كان لابدّ من الاعتماد على المنهج الاستقرائي التحليلي وتتبّع كلّ ما ورد عن ابن العريف من معاني عبودية المسلم لخالقه ومقتضياتها من أجل الوصول إلى النتيجة المرجوة من هذه الدراسة.

وقد جاء فيها ثلاثة مباحث أعرضها كالآتي:

## 2. ترجمة ابن العريف الصنهاجيّ

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي الأندلسي المريي المعروف بابن العريف؛ أصل أبيه من طنجة فسافر إلى المرية في الأندلس أين نشأ ابن العريف، وكان يميل إلى تعلّم القرآن وتعلّق قلبه بالكتب.[1]

كان من كبار الصالحين له مناقب مشهورة وعنده مشاركة في أشياء من العلوم وعناية بالقراءات وجمع للروايات واهتمام بطرقها وحملتها.[2] كما عُرُف بأنّه أحد الأولياء المتسمين بالعلم والعمل والزهد، فكان من الفقهاء والمحدّثين والقرّاء المجودين، ثم غلب عليه الزهد والورع والإيثار، فأصبح من أعلام المتصوفة ورجال الكمال.[3]

ولي الحسبة ببلنسية، وقد أقرأ بسرقسطة، وبعد ذلك بَعُدَ صيته في العبادة، توفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة ودفن بمراكش، وقيل إنَّه سُمّ.[4] وكان لما احتُمل إلى مراكش بعدما سُعي به إلى السلطان، استوحش فغرَّق في البحر جميع مؤلّفاته، فلم يبق منها إلاّ ما كُتب منها عنه.[1]

---

[1] ابن الأبّار، معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط 1، 1420 هـ، 2000م، ص 18

[2] ابن خلكان، وفيات الأعيان،1978م ج1، ص 168- الصفدي، الوافي بالوفيات، 2000م ج8، ص 88

[3] التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكاتب طرابلس، ط2، 2000م، ج1، ص 68

[4] ابن الأبّار، تحفة القادم، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1406 هـ ، 1986م، ص 26

قال أبو بكر بن خير الإشبيلي صاحب الفهرسة: "أخذت عنه واستفدت منه مواعظ ووصايا وذاكرته في أشياء من طريق الصوفية وأفادني، وله منثور رفيع ومنظوم بديع"[2] وقال أيضا: " سألته أن يجيز لي جميع ما رواه وألّفه وأجاب فيه وجميع منثوره ومنظومه فأجاز لي ذلك كلّه في ذي القعدة سنة 534"[3]

ويعتبر ابن العريف من أكبر مجددي التربية الصوفية الإسلامية الأصيلة في النصف الأول من القرن السادس بالأندلس إذ خلف عدة رجال من كبار الشيوخ الذين واصلوا مسيرته... ولابن العريف مكانة كبرى في قلب الشيخ محي الدين بن عربي فهو يصفه بشيخنا وبالمحقق...[4] وقد جاءت آثار كثيرة عنه في كتابه الفتوحات المكية.

وإنّه لا يسعنا في هذا المقام أن نستطرد في ترجمة ابن العريف لما له من مواقف سياسية واجتماعية ارتبطت بأحداث عصره وتأثّر بها، كما أنّ له صفات اتّصف بها جعلته من أهمّ زهّاد عصره، ولقد أفاضت الدكتورة عصمت دندش في التعريف به وبذكر أحداث عصره في تحقيقها لهذا المخطوط وفي كتابها بعنوان: الأندلس في نهاية المرابطين في الجزء الخاص بثورة المريدين.لذا سنقتصر على هذه العجالة من ترجمته.

## 2 التعريف بكتاب مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة

أحقّ من تكلّم عن كتاب مفتاح السعادة هي الدكتورة عصمت دندش وعن العلاقة التي ربطتها بابن العريف أثناء تحقيقها للمخطوط، وأشارت إلى أنّ أوّل من وقف على رسائل ابن العريف الواردة في الكتاب هو الأب بولس نويا، فدرست المخطوط لسنوات عدّة وأخذ منها جهدا كبيرا.[5]

وتضاربت الأخبار حول العنوان الصحيح للكتاب، فنجده مذكورا بعنوان: مفتاح السعادة لأهل الإرادة [6] كما ذكره ابن عبّاد الرندي في تفسيره للحكم العطائية بعنوان: مفتاح السعادة ومنهاج سلوك طريق الإرادة.[7]

والكتاب مجموعة من الأذكار والأدعية والرسائل تتضمّن أخبارا عنه وعن أحواله وأحوال المريدين وكثير من النصائح والتوجيهات... وذكر ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة أنّ عتيق بن عيسى الأنصاري الخزرجي(ت 548 هـ ) قيّد مصنفا جمع فيه كلام شيخه أبي العباس ابن العريف نثره ونظمه،[8] وهذا هو الذي بين أيدينا.

---

[1] الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط 3، 1405 هـ، 1985م، ج 20، ص 113

[2] التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ت أحمد توفيق،منشورات كلية الآداب الرباط، 1997م،ط 2، ص 118

[3] المعجم، المصدر السابق، ص 22

[4] عبد الباقي مفتاح، ختم القرآن محي الدين بن عربي، دار الكتب العلمية، 2009م، ص 175

[5] ابن العريف، مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة، ت عصمت عبد اللطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط 1، 1993م، ص7

[6] المصدر نفسه، ص10

[7] أنظر الهامش، المصدر نفسه، ص 11

[8] ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ت إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، تونس ط 1،2012، ج3، ص105

و عَتيق هذا هو أبو بكر عتيق عِيسَى بن مُؤمن الْأَنْصَارِيّ الخزرجي وَالِد أبي الْحسن بن مُؤمن من أهل قرطبة، كان من أهل العلم والزهد وروى عن مشايخ كثيرة وعن ابن العريف، له تواليف وذكره ابن خير في فهرسته، ولد يوم الاثنين في أواسط ربيع الأول سنة 496هـ وتوفي بقرطبة من يوم الاثنين 16 من محرم سنة 548هـ.[1]

عُرف بالفضل والحياء والصمت والمثابرة على وظائف الخير والبر بأصحابه مائلا إلى الصالحين وأهل التصوّف، وهو الذي اختار لهذا الكتاب عنوان مفتاح السعادة وطريق تحقيق السعادة وليس ابن العريف كما يتبيّن من توطئته للكتاب.[2] وقد ورد في آخر الكتاب رسائل من أحمد بن محمد إلى أبي بكر ابن مؤمن يوصيه فيها بوصايا و يكثر له من الدعاء وينعته بالحبيب القريب والأخ الودود والسيد الولي.[3]

كتب ابن العريف في هذا الكتاب خصوصا للمريدين السالكين طريق الزهد والإيمان الذين يعرفون قواعد التصوّف، وكذلك وجّه كلامه لعموم المسلمين يحثّهم على سلوك طريق الأخلاق والفضائل، كما ورد في الكتاب بعض الفصول خاصة بشرح منازل القوم والقصص التي تفيد الموضوع الذي يتناوله، ويحتوي الكتاب على إحدى وستين رسالة جمعت محاسن أقواله بأسلوب شيق ماتع.[4]

## 3. مذهب ابن العريف الصنهاجي

قبل التطرّق إلى حقائق العبودية عند ابن العريف، لا بأس أن نذكر بعض السمات التي اتّصف بها مذهبه الصوفي وفق ما استنتجه الباحث المغربي محمد العدلوني الإدريسي والذي حقق الكتاب الآخر لابن العريف: محاسن المجالس. وخصائص مذهبه نذكرها كالآتي[5]:

- مذهب سني معتدل
- التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلوات الله عليه
- الالتزام بالسنة قولا وفعلا
- الابتعاد عن النزاعات الهدامة والانحرافات الباطنية

غير أنّ هذا لا يمنع من القول بأنّه كان يأخذ ببعض الآراء الفلسفية عند خوضه في مباحث الوجود والمعرفة والقيم الأخلاقية يضمّنها آراءه الصوفية كرأيه في أنّ الله أصل كل شيء وحقيقة كلّ موجود،[6] وهذا لا يدلّ على أنّه جنح إلى التصوّف الإشراقي بل كان معتدلا في أفكاره متجنّبا الاصطلاحات الصوفية التي تتنافى مع الشريعة كمصطلح العشق،[7] كما اتّسمت طريقته في بيان آرائه آرائه بالمنهج النقدي من أجل التمييز بين أصناف الناس وإبراز الفرق بين العلم والمعرفة وغيرها من مباحث الوجود والمعرفة.[8]

---

[1] ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ت عبد السلام هراس، دار الفكر للطباعة، لبنان، 1415هـ 1995م، ج4، ص 21

[2] أنظر: مفتاح السعادة، ص 73

[3] أنظر المصدر نفسه، من ص 215 إلى ص 224

[4] المصدر نفسه، ص65، 66 بتصرّف

[5] ابن العريف، محاسن المجالس، ت محمد العدلوني الإدريسي، دار الثقافة،دار البيضاء، 2015،ص 20 بتصرّف

[6] المصدر نفسه، ص 20

[7] مفتاح السعادة، ص47 بتصرّف

[8] محاسن المجالس، ص ص21

و المطّلع على هذا الكتاب يجد أنّ ابن العريف لا يتوانى أبدا في الاستشهاد بالكتاب والسنة الصحيحة، والأخذ بما ثبت عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، يقول ابن العريف: " الأصول ستة: كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وما ثبت عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما ثبت عن الصالحين من أهل كلّ وقت، وما ثبت عن أئمة الفقهاء وأهل الاجتهاد والبصائر في الدين، وإجماع المسلمين الثابت كونه إجماعا، والنظر الصحيح وهو ما كان الحكم به مستنبطا من هذه الأمور الستة."[1] ويقول: " الصالحون هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعهم بإحسان رضي الله عن جميعهم ما نقلته الكافة وعرفته القلوب عرفان محبة."[2]

ويقرّر أنّ الأدلّة الشرعية تشتمل على هذه الأصول الستة وأنّ كل عمل أو علم أو إنكار أو سلوك لا يستند إلى دليل من هذه الأدلة فهو باطل[3]. كما يحدّ حقيقة التأويل من حيث تعلّقه بهذه الأدلة فيقول: " لا تأويل إلا ما حقق إجماع الأمة، وإذا نطق به إنسان عرفه الكافة، ولم ينكر مسلم بحقيقة إيمانه البتّة..."[4] ويقول: " من تأوّل في شيء من الدين تأويلا يؤدي إلى العمل بأدون الوجهين فهو الظاهري، ومن تأوّل في شيء من الدين تأويلا خارجا عن حكم ذلك الشيء وحكمته والمعروف المشهور والمنصور من أمره فهو الباطني وكلاهما تالف إلا من عصم الله تعالى."[5]

نستنتج من هذه النصوص التي استشهدنا بها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر أنّ ابن العريف كان ينتهج منهج أهل السنة والجماعة في تقرير المباحث العقدية والفقهية ولا يخرج عن الأصول التي أوردها وشدّدّ عليها تنبيها منه على خطورة مخالفتها والإعراض عنها.

أمّا عن العبودية لله عزّ وجلّ فقد بسط ابن العريف الكلام فيها تصريحا وتعريضا وبأسلوب القوم، وأكثر من المعاني المتضمّنة حقيقتها ومقتضياتها وكيف يكون الإنسان عبدا لله كما يحبّ الله ويرضى، ولا يبلغ العبد هذه المرتبة إلاّ من خلال معرفة حقائق العبودية و مقتضياتها والاستعانة بأدوات درك حقيقتها وهذا محتوى المبحث الآتي.

## 4. حقيقة العبد المسلم وحالاته في سيره على الله تعالى عند ابن العريف الصنهاجي

### 1.4 حقيقة العبد المسلم

ينبّه أبو العباس بن العريف على أنّ العبد المسلم المستسلم لله لابدّ وأن يهتمّ بنفسه ويراقبها في جوّ من المعاتبة والمساءلة على ما فرّط في جنب الله، ولا يكون مسلما عابدا إلا بأدوات يتوسل بها إلى الله، مثل الحزن على المعاصي والعلم اليقين والعمل المبني على هذا العلم. يقول في هذا الصدد: " واعلم أنه لا مطية إلى درك الحقائق والتقصي عن شرك العلائق كالهم الصادق والحزن المتناسق..."[6] ويقول في معرض الدعاء: "فبك اللهم عرّفنا بالعلم اليقين وبالعمل الصالح المبين في العبودية ألحق أقدارنا..."[7]

---

[1] مفتاح السعادة، ص 83
[2] المصدر نفسه، ص 169
[3] المصدر نفسه، ص 84
[4] المصدر نفسه، ص 168
[5] المصدر نفسه، ص 169
[6] مفتاح السعادة، ص 111
[7] المصدر نفسه، ص 75

ويقرّر أن الإنسان لا يساوي شيئا بدون عبادته لله وخضوعه له على وفق الكتاب والسنة، إذ: " لا حقيقة للعبد إلا عبودية وإنفاقها في خدمة مولاه على إذن الكتاب المحكم والسنة الماضية محكوما لا حاكما..."[1] وهي أصل من أصول الإنسان من حيث وجوده وكونه ابتداء ومصيرا، يقول: " الأصول أربعة: عيش وعقل، وعلم وعبودية، فالعيش لمعاملة النفس، والعقل لمعاملة الخلق، والعلم لمرافقة القلب والعبودية لمرافقة الربّ."[2] وبدونها ليس للإنسان أخلاق ولا يمكنه إلا اتّباع الظنّ وموافقة هواه فهي عند ابن العريف "عبودية يتمكن بها الإنسان من مراوضة خلقه ومسامة الحق وطرقه..."[3]

نخلص إلى أنّ حقيقة العبودية في نظر ابن العريف هي جوهر المسلم وماهيته، إذ بها يتكوّن شخصه وتكمل إنسانيته وعليها يسير على هدى من الله ويعرف الحق ويتّبعه بإنفاق عمره في خدمة مولاه بتعبير ابن العريف، ولا يتأتّى ذلك إلا باتباع أمره واجتناب نهيه وموافقة الرسول في سنّته. يقول ابن القيم في هذا المعنى: "... فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة، ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله عَلما عليها، وشاهدا لمن ادّعاها..."[4]

## 2.4 معالم السير إلى الله

يعرّفنا أبو العباس في هذا المصنّف على حقيقة العبد وحالاته وكيف تتحقّق العبودية الحقة عنده، منبّها تارة على عوائقها وموانعها، ومشيرا تارة أخرى إلى وسائل درك مراتبها وملازمتها، جمعنها ورتّبناها في عناصر محدّدة كالآتي:

### 1- حالات العبد

يتقلّب العبد بين مقامين أبدا طوال سيره إلى الله: معرفة حاله والجهل بها، إمّا مراقبا لنفسه عالما بتقصيره منيبا إلى ربّه خشية وتضرّعا، وإمّا غافلا عن نفسه لا يدري مصيب هو أم مخطئ غير آبه بما يفعل هل يرضي الله أم يستوجب سخطه والعياذ بالله. يقول ابن العريف: " العبد بين حالتي الغفلة والذكر لحاله، فهو في الجهة الأولى أقبح المخلوقات وأحق بالمقت وفي الجهة الثانية أضيق الصدور وهذا المقام صعب إن لم يتداركه مولاه فهو العطب."[5] ويقول: " الناس في الدنيا إما محمول على كاهل الغفلة يرجى له التوفيق فيما بقي من الطريق، وإما منظر إليه بعين العناية مأخوذ بيده إلى محل الحفاية..."[6]

يثني ابن العريف على من يراقب نفسه ويحاسبها وينكر عليها مداوما على ذلك مشتغلا بها عمّن سواه من الناس ثناء يقول فيه : " يعجبني في خاصتي و فيمن أحبه أن يبكي العبد خاليا حيث لا يطّلع عليه أحد إلا الله وحده لما يرى في نفسه من التقصير ويعرف عندها من العيب الكبير، فيشتغل بحاله عمن سواه ويولي الإنكار على كافة الخلق من تقلده من الحكام وغيره وتولاه...."[7]

فإن كان ذاكرا لحاله منيبا إلى ربّه فهو متحرّك بأفعاله متّجه بقلبه إلى الله تبعثه على ذلك حقيقة الخوف من الله، وإن كان في غفلة عمّا يصنع فهو كثير الكلام كثير النظر فيما لا يعنيه. فالعبد عند ابن العريف إمّا سلطان الكلام وإمّا سلطان الأفعال،: " فإن كثر

---

[1] المصدر نفسه، ص 121

[2] المصدر نفسه، ص 105

[3] المصدر نفسه، ص 220

[4] ابن القيم، تفسير القرآن الكريم، ت إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط 1، 1410 هـ ، ص 94

[5] مفتاح السعادة، ص 106

[6] المصدر نفسه، ص 111

[7] المصدر نفسه، ص198

الكلام والهذر فهو الحمق والجدال فإن صدق بما لديه صدق بصدق الموهم وكذب بكذبه...وإن كثرت الأفعال عن الكلام فهو العقل..."[1]

وأكثر المعاصي كما يذكر ابن القيم: " إنما يولدها فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسأمان... وكان السلف يحذرون من فضول النظر، كما يحذرون من فضول الكلام، كانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان."[2]

**2- إيمان العبد**

يولي ابن العريف موضوع الإيمان في مصنّفه عناية كبيرة، ويوجّه أصحابه ومريديه الذين كاتبهم إلى ضرورة تفقّد قلوبهم مواضع الإيمان، كيف لا والعبودية لله قوامها الإيمان بالله تعالى وبما أنزله وأرسله وأخبر به وشرّعه. يقول: "والإيمان الراسخ هو الإيمان الذي مرت عليه الليالي ودرجت وراءه الأيام وشجرته تسقى بماء الطاعة وتلقح بلقاح الأدب، وتنظف مسالكه إلى القلب من أضداده..."[3]

يشبه ابن العريف الإيمان الراسخ بالشجرة التي تنمو في ظل رعاية صاحبها بها، فهو يسقيها ويعتني بها بالطاعات والآداب والخلق الحسن وينزع عنها ما يؤذيها من أدران وأنجاس، ولا يمكن للعبد تحصيل الإيمان الراسخ إلا إذا صدق في إيمانه ابتداء، إذ أنّ الإيمان الراسخ هي منزلة يرتقي إليها العبد بأمور يكتبها الله عليه من بينها البلاء، يقول في معرض حديثه عن آيات الفتنة والابتلاء: " نبه سبحانه وتعالى أنّ الفتنة – وهي المشقة والمكروه- سنته في خلقه وعادة مشيئته في عباده وبريته...بهذا يبين صدق الصادق في الإيمان وكذب الكاذب...وأن البلاء عناية من الله سبحانه وتعالى بعبده ... فنبه أن البأساء والضراء من سنته القديمة المختصة بصفوته الكريمة..."[4]

غير أنّ هناك مرقى آخر للعبد في طريق عبوديته لله عند ابن العريف وهو سكينة الإيمان ولا تكون هذه الرتبة إلاّ بالتزام ما يرضه الله، فيوصي بعض أحبابه في رسالة قائلا: " اجمع همّك وهمّتك في إدراك بعض ما يلزمك من قيام حجة الله عليك فإنّ ذلك معراج حق يوصلك إلى محل سكينة الإيمان ويحول في البداية و النهاية بينك و بين أهوائك وأعدائك..."[5] ويقول أيضا: " فإنّ العبد إذا اتصلت اتصلت حقيقته بسكينة إيمان أمدّه الله في نفسه الأمن في الدنيا والجنة في العقبى ..."[6] وقد أورد ابن القيم سكينة الإيمان كمنزلة من من منازل إياك نعبد وإياك نستعين فقال: " هذه المنزلة من منازل المواهب لا من منازل المكاسب...وأصل السكينة هي الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدّة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات."[7]

---

[1] مفتاح السعادة، ص 98
[2] ابن القيم، تفسير القرآن الكريم، مصدر سابق، ص 692
[3] مفتاح السعادة، ص 86
[4] مفتاح السعادة ، ص 88
[5] المصدر نفسه ، ص 139
[6] المصدر نفسه، ص 139
[7] ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ت محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3 ،1416هـ، ص 470، 471

غير أنّ أبا العباس ينبه على العلم الصحيح يُتوسَّل به إلى مراتب الإيمان فمن التزم بعد علم ليس كمن التزم بجهل، ولذلك نجده كثيرا ما يذكّر بالعلم ويوجه مريديه وأصحابه إلى طرق تحصيله.

## 3- علم العبد

العلم عند ابن العريف من الفروض العينية لا يكون إلا عن فهم وتفقه في الدين بأدلة صحيحة لا تخالف الشرع وهو قول وعمل " حتى يكون نطقه بالعلم له لا عليه...والعلم هو مبدأ الخيرات كلها..." [1] ولا يزال العبد في مجاهدة في طلب العلم الصحيح حتى يفتح الله عليه بفتوح العلم المقرون بالعمل الموافق للكتاب والسنة، يقول: " فإن النفوس سجاياها عند ورود الإيمان مجبولة وعلى غير ثبوت العلم والتعليم محمولة، والنفس أمّارة بالسوء إلا ما سبق في الأزل من صلاح المضنون."[2]

ويحدّد أبو العباس منهجا في طلب العلم الصحيح يقوم على أسس هي: معرفة حقائق السؤال وتحرير محل النزاع وما يدخله تحته، فيقول: " والعلم مفتاحه السؤال ولا يتم السؤال إلا بمعرفة حقائق السؤال والعمل بحسبها"[3] ثمّ " لابد لكل طالب علم حقيقة من ثلاثة أشياء أحدها: معرفة الإنصاف ولزومه الأوصاف والثاني: تمييز وجه السؤال وتجريده من عموم جهات الإشكال والثالث تحقيق الفرق بين الخلاف والاختلاف"[4]

والأساس الثاني هو أخذ العلم من أفواه العلماء لا من سطور الكتب لأن الله يفتح على أسماع عباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، يقول عن هذه القاعدة مستشهدا بالقرآن: إنّ العلم إنّما هو في صدور العلماء يبقى ببقائهم و يفنى بفنائهم... والمكتفي بالكتاب عن الشيخ قبل البحث والجدّ في طلبه ليس بفقيه"[5]

ويقول عن فقه الاستماع للعلم والذي هو من المواهب الإلهية يتفضل به الله على من يشاء من عباده: " لا يصح التعلم لعلم من العمل إلا بانفتاح سمع ولا ينفتح سمع إلا بمفتاح من صحبة السامعين بالحقيقة أو بخصوصية من الله سبحانه ومن توهم أن سمعه قد انفتح بنفسه فهو مغتر..."[6] كما يبيّن حقيقة انفتاح السمع وعلاقته بالكتاب والسنة فيقول: "وعلامة الانفتاح الإصغاء والإقبال بالكلية عند الكتاب السنة والسير الواضحة من سير العلماء والصالحين."[7] أما عن الأساس الثالث فهو طلب العلم المؤدي إلى العمل الموافق للكتاب والسنة، يقول: " العلم وضع الأعمال حيث وضعها الله سبحانه وتعالى من بيان الكتاب والسنة..."[8]

ولما كان للعلم مكانة عظمى عند ابن العريف كان من السهل أن نجد في كتاباته و رسائله لإخوانه تهاني الشوق والغبطة بلقائهم بالعلماء والصالحين ويسألهم الدعاء وهو العالم الزاهد بأن يمنّ الله عليه بعالم يعلّمه، يقول: " بلغني يا أخي أنّ الله سبحانه وتعالى كشف لك عن عالم تهتدي بأنواره وتقتدي بآثاره فتحا يفتح الله لك بذلك من غير طلب ولا عن تعب ونصب إلا رحمة من

---

[1] مفتاح السعادة، ص 84
[2] المصدر نفسه، ص 126
[3] المصدر نفسه، ص 84
[4] مفتاح السعادة، ص 90
[5] المصدر نفسه، ص 135
[6] المصدر نفسه، ص 175
[7] المصدر نفسه، ص 175
[8] المصدر نفسه، ص 215

الرحمن الرحيم... فهنيئا لك رؤية العلماء بالله ولقاؤهم... فسألتك بوجه الله العظيم وبحقه الكريم ألا ما ذكرتني عند عالمك.. ولا تدع الرغبة في حالي حتى يصل إلي من العلماء بالله من يعلمني..."[1]

نخلص إذن إلى أنّ العلم عند ابن العريف تفقه في الدين وفهم مراد الله وفهم مراد رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي ينتج العمل المفروض والمندوب رغبة إلى الله رهبة منه، ولا يكون إلا عن إيمان وهو بدوره-أي العلم الصحيح- يسمو بالعبد في مراتب الإيمان.

## 4- توبة العبد

عند ثبوت الإيمان ورسوخه عن علم وفهم، ينتقل العبد إلى مقام التوبة في عبوديته لله، وهو مقام عظيم وخطير، له حقيقة وأسباب باعثة عليه دافعة له، وأكثر أقوال ابن العريف في كتابه هذا عن التوبة والبوء لله بالذنوب والرجوع إليه، وسؤاله التوبة وحلاوة التوبة.

وحدّ التوبة عند ابن العريف هي الرجوع إلى الحق الذي يقابله الإصرار وهو التمادي على الباطل وهي: " رحمة من الله وروح من الله، والإصرار باستثقال معاودة التوبة يأس وقنوط وهو الهلاك."[2]

يتضرّع أبو العباس إلى الله قائلا: "اللهم إنا نسألك في التوبة لنا ... اللهم علمنا حقائق علمها تعليما وحكمنا في أسبابها كلها تحكيما وتممها لنا بالتعجيل والبركة والدوام عليها إلى آخر نفس من أنفاسنا... اللهم أذقنا حلاوة برد التوبة ما يثبت في قلوبنا ولا يفنى ولا يبلى أبدا يا من هو النور الأعلى..."[3] ويدعو قائلا: "... وارزقني من الاعتراف بذنوبي وعيوبي والمعرفة بها، ما يعينني على طلب علم توبة كل ذنب وعيب، واجعل لي ذلك الطلب في ورع، وذلّل لي ذلك بالعمل وأوصلني بك إليك يا من لا يوصل إليه إلا به."[4] ويسأل ربه كمال التوبة فيقول:"... ولا تحرمني كمال التوبة وقد بدأتني بها، وأذقتني من لذّتها، ما ذاق الرضيع في أول يوم من أيامه من لذة لبانه فلا هو يشعر فيشكر وإن منع يقلق ولا يصبر..."[5]

من خلال هذه الأدعية، نلحظ أنّ للتوبة عند ابن العريف مراتب هي: علم التوبة وهي أن يقف العبد عند ذنوبه وعيوبه ويصلحها، حلاوة برد التوبة وهي اعتياد العبد على التوبة من ذنوبه ورجوعه إلى الله وتذكره وتبصّره وهي فضل من الله ورحمة، وكمال التوبة هي عناية الله بعبده وتصريفه عن مواقع سخطه تفضلا وتكرما من عنده سبحانه حتى يكاد العبد يغفل عن أسبابها وشكر ربه عليها.

إنّ تحقيق علم التوبة والترقي في مراتبها لا يكون إلاّ إذا خاف العبد ربه على الحقيقة ورجاه فلا يعصيه مجاهدا مستمرا على ذلك فيكون من التوابين ويكتب له الإخلاص يقول ابن العريف في هذا المعنى: " الطهارة من الذنوب هي الزوال عن محل الغضب وهو المعصية ومن استمر على الزوال وثبت عليه فهو من التوابين ومن كان هذا حاله كان في ثبوت في محل الرضى وهي صفة المخلصين

---

[1] المصدر نفسه، ص 183
[2] مفتاح السعادة، ص 81
[3] المصدر نفسه، ص 75
[4] المصدر نفسه، ص 79
[5] المصدر نفسه ، ص 80

والطريق إلى ذلك أولا صحة الخوف من الله سبحانه وتعالى والرجاء له على الحقيقة ومن خافه ورجاه على الحقيقة عمل على اليقين."[1]

## 5- خلوة العبد

مازال العبد يترقى في منازل العبودية لله تعالى حتى لا يهنأ له عيش إلا بخلوة يناجي فيها ربه ويذكره خاليا حبا وشوقا وخشية منه سبحانه، وهذا مقام المخلصين ينعم به الله على من اطّلع على قلبه وهداه، أمّا حقيقة الخلوة عند ابن العريف: " بدايتها التسبب لها بمفارقة الخلق من غير إضرار بدين أحد من خلق الله، ولا إضرار بحق من حقوق الله وحقوق الخلق، أوجب نفس الخلوة مقدارا ما من الليل أو النهار بلا عمل، فكيف إذا انضاف إليها ركوع أو قراءة قرآن أو فكر في علم حق أو نظر في كتاب؟ ثم إذا وجد العبد بركتها جلبت إليه وهي أول مقامات الإخلاص..."[2]

وفي هذا المعنى يقول صاحب كتاب العزلة والانفراد: " ويهيج من حب الخَلوة خمول النفس والإغماض في الناس وهو أول طريق الصدق ومنه الإخلاص... والأنس بالله والاستثقال بمجالسة غير أهل الذكر.." [3]

ومن خصائص الخلوة عند ابن العريف أنها لا تصح إلا لأهل الرغائب الذين أوتوا عزيمة وصدقا، ومن خصائصها أنّها تُحصّل بطريق المجاهدة والعلم ويجتمع في الخلوة عمل القلب والجارحة معا.[4]

## 6- العبد الولي

أعلى مراتب العبودية لله عز وجل عند ابن العريف الصنهاجي من خلال تتبّع أقواله في مصنّفه الذي بين أيدينا هي منزلة الولاية التي هي لخاصة عباد الله الصالحين، وشأنا عظيما ومكانة عُليا، وهي بدورها على مراتب ومناصب، وحقيقتها عنده موافقة حكم الله وشرعه والقيام بحقه والوفاء بعهده، فنجد من دعائه رحمه الله: " اللهم إنا نسألك الولاية ومراتبها ومناصبها، لا لما فيها من حظوظ أنفسنا، لكن لما فيها من موافقة حكمك في أمرك نهيك..."[5] وقوله:" ... ولكني أسألك من مراتب أوليائك ما يعنني على القيام بحقك، وينهضني إلى الوفاء بعهدك...."[6]

---

[1] المصدر نفسه ، ص 94

[2] مفتاح السعادة، ص 105

[3] ابن أبي الدنيا، العزلة والانفراد، ت مسعد السعدني، مكتبة الفرقان القاهرة، د ط، ص 79

[4] مفتاح السعادة، ص118 و119 بتصرف

[5] المصدر نفسه، ص 76

[6] المصدر نفسه، ص77

يستشهد ابن العريف بحديث عائشة رضي الله عنها( **من سأل عنّي و سرّه أن ينظر إليّ فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر، لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، رفع له علم فشمر إليه اليوم المضار وغدا السباق والغاية الجنة أو النار**)[1] على أنّ رؤية ولي من أولياء الله الصالحين كرؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " نبه النبي صلى الله عليه وسلم من رأى وليا فكأنّما رآه، ومن سمع خبره فكأنما سمع خبره، وفيه تنبيه على أنّ إنكار الكرامة إنكار للمعجزة، وأنّ الزهد في رؤية الولي ومسامرة أخباره وآثاره كالزهد في أخبار النبي ومشاهدة أخباره ونعوذ بالله من ذلك"[2]

لكنه في المقابل ينبه على خطورة الاستهانة بالولاية أو السعي في طلبها لحاجة دنيوية أو الاعتماد على عبد صالح وجعله واسطة والعياذ بالله يقول: " وأكثر الخلق يرى أنه لو حصل وليا لله حصل مَلَكا مطاعا وأميرا في السموات والأرض مراعا، وهيهات ! إنما يحرص على الولاية من لم يعرف أنها أثقال لا تحملها الجبال وأن الذنب فيها ذنبان..."[3]

من أجل ذلك لم يجوّز بعضهم أن يعرف العبد الصالح بأنّه وصل إلى مرتبة الولاية " لِأَن معرفَة ذَلِك تزيل عَنهُ خوف الْعَاقِبَة وَزَوَال خوف الْعَاقِبَة يُوجب الْأَمْن وَفِي وجوب الْمَنّ زَوَال الْعُبُودِيَّة لِأَن العَبْد بَين الْخَوْف والرجاء]"[4]

## 5. موانع السير إلى الله تعالى

نختم هذا البحث الوجيز بمعوقات السير إلى لله تعالى من خلال استقراء أقوال ابن العريف والتي جمعها واختصرها في معرفة وتحقيق حقيقة الرذائل الثلاثة: الإعجاب، الحسد والرياء، من حيث تعلقها بباطن العبد وظنه بأخيه المسلم من خلال قاعدة مفادها: من ظنّ بغيره أنه مراء أو على غير طريق مستقيم فقد اجتمعت فيه الرذائل الثلاثة: [5]

- الإعجاب بنفسه، وترك الإعجاب بالنفس وبأعمالها وأحوالها لا يتحقق إلا بمعرفة حقائق التواضع والعمل عليها.
- الحسد: وهو لا أن يتمنى العبد زوال النعمة عن أخيه بل يدعي أنها ليست بنعمة وإنما هي نقمة استحقارا له أن يكون عند الله أهلا للنعمة وترك الحسد لا يتحقق إلا بمعرفة حقائق النعمة والطلب لها وحقائق النقمة والفرار منها.
- الرياء: أن ينكر على أخيه ويطن بهذا الإنكار أنه قربة لله و هو ليس بقربة لأنه لا يراد به وجه الله سبحانه وتعالى لأنه إنكار لم يستند إلى دليل من الأدلة الصحيحة التي يكون بها العمل حقا وعلما صحيحا وترك الرياء لا يتحقق إلا بمعرفة حقائق الإخلاص.

كما ينبّه على خطورة التحكّم في شرع الله وفي أحكامه والذي يمنع تحقيق حقيقة العبودية لله تعالى، ويميّزه عن الحكمة التي حقيقتها رسوخ الإيمان بطريق صحة الفهم عن الله، يقول في هذا الصدد: " ثبوت التحكم يمنع من ورود الحكمة: الحكمة طريقها الإيمان ومكانها الفهم وقرارها اليقين وتسوقها السعادة وتحدوها الإرادة التي لا تعارضها إرادة... والتحكم طريقه العقل ومكانه الوهم وقراره الشك ويسوقه التكلف ويحدوه من ورائه الهوى المزخرف..."[6]

---

[1] أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط 3241، ج3 ص 306، دار الحرمين القاهرة، وابن عدي في الكامل ج4 ص250 الكتب العلمية بيروت، وأبو نعيم في الحلية ج1 ص 9، السعادة مصر، والحديث ضعفه الألباني وقال العراقي إسناده ضعيف

[2] مفتاح السعادة، ص 177

[3] المصدر نفسه، ص206

[4] أبو بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية بيروت، د ط، ص 74

[5] مفتاح السعادة، ص 52، 83، 84

[6] مفتاح السعادة، ص 127

ولعلّ ما نختم به هذا العنصر مقولة ابن العريف التي تضمّنت طريق سير العابد والثمار الذي يجنيها وهي المجاهدة والظفر، يقول: " " واعلم أنّ الجهاد قبل الظفر، فلا تلتفتنّ إلى أحوال من ظفر قبل التفاتك إلى أحوال من جاهد..."[1] وبهذا يثبت عند ابن العريف أنّ العبودية هي تمام الخضوع لله تعالى بإيمان صادق ولشرعه المحكم والسير عليها هو مجاهدة النفس والتخلي عن الرذائل الثلاثة وتفقدّ مواطن حكم الله وشرعه والامتثال له خوفا ورجاء. عن المجاهدة يقول ابن رجب الحنبلي: " فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه غلبه، وحصل له النصر والظفر، وملَكَ نفسه، فصار عزيزاً ملكاً، ومن جَزِعَ ولم يَصبر على مجاهدة ذلك، غُلِب وقُهر وأُسر، وصار عبداً ذليلاً أسيراً في يدي شيطانه وهواه"[2]

## 6.النتائج والتوصيات:

نخلص في نهاية هذا البحث إلى النتائج الآتية:

- العبد المسلم عند ابن العريف إنسان من حيث وجوده وكونه ابتداء ومصيرا والاستسلام لله تعالى هي حقيقته وهي من أخصّ خصوصياته.
- العلم عند ابن العريف من الفروض العينية لا يكون إلا عن فهم وتفقه في الدين بأدلة صحيحة لا تخالف الشرع وهو قول وعمل يُتوسَّل به إلى مراتب الإيمان: الإيمان الراسخ و سكينة الإيمان.
- يحدّد ابن العريف منهجا في طلب العلم الصحيح يقوم على أسس هي: معرفة حقائق السؤال وتحرير محل النزاع وما يدخله تحته، أخذ العلم من أفواه العلماء لا من سطور الكتب، و طلب العلم المؤدي إلى العمل الموافق للكتاب والسنة،
- حدّ التوبة عند ابن العريف هي الرجوع إلى الحق الذي يقابله الإصرار وهو التمادي على الباطل وهي مراتب: علم التوبة، حلاوة برد التوبة، وكمال التوبة.
- على العبد أن يتفقد حاله عند الرذائل الثلاثة التي تعيق حقيقة العبودية لله تعالى وهي: الإعجاب، الحسد والرياء، من حيث تعلقها بباطن العبد وظنه بأخيه المسلم من خلال قاعدة مفادها: من ظنّ بغيره أنه مراء أو على غير طريق مستقيم فقد اجتمعت فيه الرذائل الثلاثة. كما يبين خطورة التحكّم في شرع الله وفي أحكامه.

أما عن التوصيات فأقول وبالله التوفيق: إني قد عانيت هذا المصنّف الماتع رغم صغر حجمه، وأقبلت على قراءته عديد المرات في شغف وإكبار لما فيه من مواعظ تليّن قسوة القلب وتوجيهات ينفتح له الإدراك والسمع، وما جلبه لي من السعادة، ليتبين لي أنه يحمل في طياته مواضيع تستدعي البحث والتنقيب وهي فرصة جيدة للباحثين من أجل أن يكشفوا اللثام عنها ونتعرف معهم على فلسفة ابن العريف في مباحث الوجود والمعرفة، نظرية ابن العريف الأخلاقية، المنهج التربوي عند ابن العريف... وغيرها من المسائل التي تفتح مجالا لدراسة الفكر العريفي الأندلسي والاستفادة منه في حياتنا المعاصرة.

---

[1] المصدر نفسه، ص 173

[2] ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ت محمد الأحمدي أبو النور، دار السلام للنشر والتوزيع، ط 2، 2004، ج 2، ص 584

## 7. قائمة المراجع:

1- ابن أبي الدنيا، العزلة والانفراد، ت مسعد السعدني، مكتبة الفرقان القاهرة، د ط،
2- ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ت عبد السلام هراس، دار الفكر للطباعة، لبنان، 1415هـ 1995م
3- ابن الأبّار، تحفة القادم، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1406 هـ ، 1986م
4- ابن الأبّار، معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط 1، 1420 هـ، 2000م
5- ابن العريف، محاسن المجالس، تـ محمد العدلوني الإدريسي، دار الثقافة،دار البيضاء، 2015
6- ابن العريف، مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة، ت عصمت عبد اللطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط 1، 1993م
7- ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ت محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3 ،1416هـ،
8- ابن القيم، تفسير القرآن الكريم، ت إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط 1، 1410
9- ابن خلكان، وفيات الأعيان،1978م ج1، ص 168- الصفدي، الوافي بالوفيات، 2000م
10- ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ت محمد الأحمدي أبو النور، دار السلام للنشر والتوزيع، ط 2، 2004
11- ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ت إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط 1 ، 2011م
12- أبو بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية بيروت، د ط
13- التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تـ أحمد توفيق،منشورات كلية الآداب الرباط، 1997م،ط 2
14- التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكاتب طرابلس، ط2، 2000م
15- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط 3، 1405 هـ، 1985م
16- عبد الباقي مفتاح، ختم القرآن محي الدين بن عربي، دار الكتب العلمية، 2009م